النظام الفكري وعلاقته بالتنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي

د. محمد لخضر حرزالله

كلية الحقوق والعلوم السياسية - جامعة بسكرة(الجزائر)

mohamed.harz@yahoo.fr

الملخص:

تسعى هذه المداخلة إلى استجلاء وتحليل مقاربة مالك بن نبي حول مسألة التنمية الاجتماعية وما جادت به قريحته الفكرية في هذا الإطار، وهذا بهدف صياغة مقاربة تكاملية حول مقومات التنمية الاجتماعية والمنطلقات الموضوعية التي تتطلبها من منطلق فلسفة مالك بن نبي حول البناء الحضاري ورؤيته التشخيصية لمشكلات العالم الإسلامي.

الكلمات المفتاحية:

التنمية الاجتماعية، النظام الفكري، الفعالية، القابلية للاستعمار، البناء والتكديس.

المقدمة:

يركز مالك بن نبي في نظريته لبناء المجتمع على الدور المحوري والإستراتيجي للأفكار في هندسة المعمار الحضاري للمجتمعات، ويكون مجال التركيز هنا على **الأفكار التي تبعث على الحركة والعمل والتجديد**، فالقرآن الكريم نزل في بيئة ميتة اجتماعيا وعلميا وحضاريا، ومن خلال ما جاء به من قيم وأفكار حية

أحدثت تغييرا عميقا ونوعيا في الأنفس والطباع والقناعات والسلوكات، فقام بثورة فكرية انتهت بتخليص المجتمع الجاهلي من أفكاره القاتلة والميتة وحولته إلى مجتمع عملي رسالي.

ومن خلال تتبع أطروحاته في هذا المساق الفكري، فإن مالك بن نبي قد أبان -بما لا يدع مجالا للريب- عن وجود علاقة تلازمية بين النظام الفكري بما يحتويه من عناصر فعالة وقابلة للتجسيد، ومستويات التنمية الاجتماعية والبناء الحضاري لأي مجتمع، وقد كانت المنظومة الفكرية والقيمية الحية والملهمة لبنة تأسيس المجتمع المسلم في إرهاصاته الأولى، التي لم يكن يملك فيها من عالم الأشياء شيئا، بقدر ما كان يمتلك من عالم الأفكار ما أهّله لتأسيس حركة فعالة عبر الزمن تُوّجت بميلاد مجتمع مسلم رسالي اتسعت دائرة وجوده في كل أصقاع المعمورة بسرعة هائلة، قياسا على حياة المجتمعات ونموها وانتشارها على مجرى التاريخ.

وسأحاول من خلال هذه الدراسة تقديم مقاربة تشخيصية وعلاجية للأدواء المعطلة لحركة الانبعاث الحضاري للمجتمعات الإسلامية وسبل الخلاص منها، مسترشدا بالكليات الفكرية التي قدح بها زناد مالك بن نبي رحمه الله، معتمدا على المنهج الوصفي، ومنطلقا من الإشكالية التالية:

كيف يسهم النظام الفكري في هندسة التنمية الاجتماعية من منظور فكر مالك بن نبي ؟

وللإجابة على هذه الإشكالية تم اعتماد الخطة المنهجية التالية:

أولا/ النظام الفكري والتنمية الاجتماعية: مقاربة مفاهيمية.

ثانيا/ العلاقة بين نوعية الأفكار ومستوى الوعي الاجتماعي.

ثالثا/ فكرة الحق والواجب عند مالك بن نبي.

رابعا/ معوقات التنمية الاجتماعية لدى مالك بن نبي.

خامسا/ التنمية الاجتماعية: بين البناء والتكديس.

سادسا/ أبعاد التنمية الاجتماعية وفق منظور مالك بن نبي.

أولا/ النظام الفكري والتنمية الاجتماعية: مقاربة مفاهيمية.

في إطار تشخيصه لمقومات البناء الحضاري ربط مالك بن نبي فلسفة الحضارة بفعالية الأفكار ربطا تلازميا سواء في تحديد هوية الحضارة، أو في مدى تدخلها في أحوال الحضارة...فكل خلل يحدث للمجتمع لابد فيه من مراجعة علاقة هذا المجتمع بأفكاره، حينذاك يقول ابن نبي:"إننا في كل مرة نقف فيها أمام مظهر من

مظاهر اللافعالية في المجتمع الإسلامي نرى أنفسنا مجبرين على ربطه ب"عالم أفكارنا" لأن في هذا العالم تكمن أدواؤنا."[1]

وكمثال على دور"عالم الأفكار" في المعمار الحضاري للمجتمعات وتأسيس بنيتها التحتية وكافة موجوداتها، يعقد بن نبي تحليلا منطقيا لأسباب نهضة ألمانيا في العصر الحديث بعدما استنزفت الحرب العالمية الثانية كافة مقدراتها المادية، إلا أنها استطاعت بما تملكه من رصيد فكري حيوي وفعال، إعادة ما فقدته من"عالم الأشياء" وزادت عليه، حيث يقول رحمه الله:"يمكننا، بل يتعين علينا أن نقول: إن الإنسان هو الذي يحدد في النهاية القيمة الإجتماعية لهذه المعادلة(**إنسان، تراب، وقت تساوي: حضارة**) لأن التراب والوقت لا يقومان –إذا اقتصر عليهما فحسب- بأي تحويل اجتماعي.**ونحن إذا ما تساءلنا إذن: بأي شيء أَنْهَضَ الإنسانُ الألماني وضعية بلاده أثناء هذا العقد المنصرم من الزمان؟** نكون ملزمين بالجواب عن سؤالنا هذا بطريقة واحدة لا غير، وهي أن أفكاره وأفكاره فحسب هي التي أتاحت له أن يحقق ذلك النهوض. وهذا أمر حقيقي -وحقيقي بصورة لا مجال للريب فيها- سيما وأن حرب 1939-1945 قد خربت عمليا(عالم الأشياء) في ألمانيا، بمصانعه وآلاته ومناجمه وبنوكه ومختبراته، فكل هذه الأشياء كانت قد دُمرت وأتلفت،إذن فقد كانت ألمانيا على وجه الدقة-وبطريقة تكاد تكون رياضية- لا تملك سنة 1945 أيَّ مجموعة من(الأشياء) ولكن مجموعة من(الأفكار)فحسب، وهي قد كونت من جديد وابتداء من هذا"الرأسمال المفاهيمي" كل حياتها الإجتماعية، واحتلت مجددا مكانتها السياسية في العالم.إن تجربتها بالنسبة إلينا لا تقدر بثمن فهي تتيح لنا أن نستخلص بطريقة علمية، أن قيمة مجتمع معين في فترة ما من تاريخه لا يعبر عنها بمجموعة الأشياء في هذا المجتمع ولكن بمجموعة أفكاره."[2]

وبغياب هذه الفعالية الفكرية لدى المجتمع المسلم سقط في شراك المستعمر وما زال إلى اليوم يعاني ويلات بُعدِه ونُكوصه عن الأخذ بأسباب نهوضه، بالتركيز على"عالم الأفكار" بدل"عالم الأشياء" وفي عالم الأفكار يشترط أن تكون أفكارا ذات قيم إيجابية تبعث على الحياة والبناء والحركة والتطور، وفي هذا السياق يقول ابن نبي:"إن الأفكار لا تتمتع في المجتمع الإسلامي **بقيمة ذاتية**، تجعلنا ننظر إليها بصفتها أسمى المقومات الإجتماعية، وقوة أساسية تنظم وتوجه قوى التاريخ كلها، وتعصمها بذلك من محاولات الإحباط مهما كان نوعها." [3] بل يذهب بن نبي بعيدا عندما طرح فكرة انتقام **الأفكار المخذولة** من أصحابها، فيُبيّن أن الأفكار الفعالة إذا لم تحظَ بالاحتفاء والتطبيق اللازم من معتنقيها فإنها تنتقم منهم وتؤدي عكس مفعولها الإيجابي، حيث يقول:"نستطيع القول بأن العالم الإسلامي يواجه اليوم عقوبة مستحقة من الإسلام،

---

[1] مولاي الخليفة لمشيشي، **مالك بن نبي دراسة استقرائية مقارنة**. دمشق:دار محاكاة للنشر والتوزيع، 2012، ص128.

[2] مالك بن نبي،**فكرة كمنويلث إسلامي**. دمشق: دار الفكر،2000، ص53.

[3] مالك بن نبي،**الصراع الفكري في البلاد المستعمرة**. دمشق: دار الفكر،2009،ص 82.

لِالْتِفَاتِهِ عنه وليس كما يظن بعض السُّذّجِ لتمسكه به."[1] "فالمجتمع الإسلامي يدفع اليوم ضريبة خيانته لنماذجه الأساسية، فالأفكار–حتى تلك التي نستوردها–ترتد على من يخونها وتنتقم منه."[2] وهذا الطرح الرصين يؤكد لنا أن كُلًّا من الأفكار القاتلة والميتة والأفكار الفعالة المخذولة من أصحابها تؤدي إلى التردي والإرتكاس الحضاري وتدهور الحالة الإجتماعية والنفسية والأخلاقية للمجتمعات.

ثانيا/ العلاقة بين نوعية الأفكار ومستوى الوعي الاجتماعي.

اهتم مالك بن نبي بسبر وتقسيم الأفكار حسب نوعيتها وجودتها أو رداءتها وسلبيتها، مبرزا علاقة ذلك بالفعل الحضاري صعودا أو هبوطا:

1- الأفكار الموضوعة والأفكار المطبوعة.

يرى مالك بن نبي أن الأفكار تشبه أسطوانة يحملها الفرد عند ميلاده، وهي تختلف من مجتمع لآخر، والأفراد والأجيال يعزفون أنغامهم الخاصة التي تتوافق ترددتها مع الأنغام الأساسية أو النماذج المثالية لتلك الأسطوانة. تلك الأنغام يسميها مالك بن نبي " الأفكار المطبوعة" وأما التوافقات الموسيقية التي تخص الأفراد والأجيال فيسميها" الأفكار الموضوعة"....والقرآن الكريم كان هو الرسالة المطبوعة التي جاء بها الوحي من السماء فعدلت الطاقة الحيوية للمجتمع الجاهلي ووجهتها وجهتها الجديدة، وغيرت طريقة تفكير هذا المجتمع ومنظومته الأخلاقية، وفي غمرة حماس المجتمع الذي انسجم كله مع التوافقات الأساسية للأفكار المطبوعة الجديدة صار عند كل فرد حساسية ضد أي خروج أو نشاز في اللحن ويسارع إلى تصحيحه، ولو كان النشاز من عنده كما في حالة المخلفين الثلاثة في غزوة تبوك وفي حالة المرأة التي زنت وجاءت تطلب من النبي عليه السلام أن يطهرها.

يقول بن نبي إنه حين ينحط المجتمع تسكت تلك التوافقات الأساسية بالتدريج جالبة معها –كما نعلم من الفيزياء- صمت التوافقات المنسجمة معها، أي تختفي الأفكار الموضوعة أيضا ويحل الصمت وتختفي الحساسية فلا يظهر أي رد فعل للنشاز ويختفي العنصر الروحي وتختفي الدوافع الجماعية من المجتمع ويفنى ويتحول إلى ذرات.[3]

2- الأفكار الميتة والأفكار القاتلة:

وفي هذا السياق يقسم مالك بن نبي الأفكار التي تعيق حركية المجتمع إلى: **أفكار ميتة و أفكار قاتلة** Les idées mortes et mortelles ، "الفكرة الميتة" يعرفها مالك بن نبي بأنها:" فكرة خذلت أصولها وانحرفت

[1] محمد شاويش، **مالك بن نبي والوضع الراهن**. دمشق: دار الفكر، 2007، ص94.

[2] مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**. دمشق: دار الفكر، 2002، ص75.

[3] محمد شاويش، **مالك بن نبي والوضع الراهن**. المرجع السابق، ص 87.

عـن نموذجهـا المثـالي ولـم يعـد لهـا جـذور في محـيط ثقافتهـا الأصـلي." و" الفكـرة القاتلـة" هي فكـرة فقـدت شخصيتها وقيمتها الثقافية بعد أن فقدت جذورها التي ظلت في مكانها في عالمها الثقافي الأصلي.[1]

فالأفكار القاتلة هي الأفكار التي تقتل في الفرد حركيته ودافعيته للبناء والتجديد، أفكار تبعث على الخمول و الكسل وقهر الإرادة، و تستنهض بواعث الإجرام و الأحقاد و النزاع بين أفراد المجتمع فتؤدي به إلى الاقتتال والتفكك. أما الأفكار الميتة فهي ما يجول بخاطرنا من أفكار فاقدة للحياة، عديمة الفعالية كالخرافات والشعوذة والقابلية للإستعمار، وفي هذا الصدد يقول مالك بن نبي:" **إن كل مجتمع يصنع بنفسه الأفكار التي ستقتله، لكنها تبقى بعد ذلك في تراثه الإجتماعي" أفكارا ميتة" تمثل خطرا أشد عليه من خطر "الأفكار القاتلة"، إذ الأولى تظل منسجمة مع عاداته، وتفعل مفعولها في كيانه من الداخل، إنها تكوّن ما لم نُجْرِ عليها عملية تصفية، الجراثيم الفتاكة التي تفتك بالكيان الإسلامي من الداخل، وهي تستطيع ذلك لأنها تخدع قوة الدفاع الذاتي فيه.**"[2]

يشير مالك بن نبي إلى خطورة الأفكار الميتة والقاتلة في تدمير البناء الإجتماعي من داخله وتقهر الإرادة وتقتل فيها روح الإبداع والتنافس، وهي الأفكار الموروثة خلفا عن سلف والتي ترسخ في النفس شعور النقص والقابلية للاستعباد والتبعية للغير، وعدم الثقة بالذات والرضا بواقع الحال ونبذ التغيير والتجديد، وتقتل في النفس القدرة على الإبداع والاستقلالية.

ولبيان مدى خطورة الأفكار الميتة وأثرها السلبي على البناء التنموي للمجتمع، عقد مالك بن نبي مقارنة مفيدة بين المجتمع الياباني والمجتمع الإسلامي، " فإنهما دخلا المدرسة الغربية في الوقت نفسه تقريبا- حوالي سنة 1860- ولكن الحقيقة التاريخية التي لا جدال فيها هي أن النتيجة اختلفت تماما إذ نجد بعد قرن " معجزة اليابان" في ميدان الفن والصناعة والاقتصاد، ومن طرف آخر المجتمع الإسلامي نجد دون ريب، مجهودا لا ينكر فيما نسميه " النهضة" ولكنه مجهود تشله" الأفكار الميتة" الموروثة من عهد ما بعد الموحدين. فمعجزة اليابان لا تفسر قطعا إلا بموقف فيه فعالية أكثر اتخذه اليابان من الثقافة الغربية لأنه تخلص من الأفكار الميتة الموروثة من عهد" الشوغون".[3]

3- الأفكار المخذولة و انتقامها:

حين لا ينسجم السلوك مع فكرته المثالية تنتقم هذه الفكرة المخذولة لنفسها، يقول مالك بن نبي:" الأفكار الموضوعة تختلف عن الأفكار المطبوعة التي كانت في القوالب الأصلية، وهذا الاختلاف أو هذا الغدر يدويّ في كل نشاطاتنا ويعرض هذا النشاط للانتقام من طرف الأفكار الأصلية انتقاما يكون أحيانا غاية

---

[1] المرجع نفسه، ص 88.

[2] مالك بن نبي، **في مهب المعركة إرهاصات ثورة**. (دمشق: دار الفكر، 2002)، ص 130.

[3] المرجع نفسه ، ص 134.

في العنف على الصعيد السياسي عندما تنتقم الأفكار المخذولة. وقد يكون من الأيسر تصور هذا الانتقام في المجال التقني عندما تصمم خطأً إحدى الماكنات وتنفجر أو أحد الجسور فينهار لأن الانتقام في هذه الحالة يكون فوريا. ولكن المجتمعات والحضارات والممالك قد تنهار هي أيضا بالطريقة نفسها وليست كوارث التاريخ في غالب الأحيان إلا آثارا مباشرة لنوع من انتقام الأفكار المخذولة. ويقول بن نبي معلقا:" نستطيع القول بأن العالم الإسلامي يواجه اليوم عقوبة مستحقة من الإسلام، لالتفاته عنه وليس كما يظن بعض السذج لتمسكه به." إذا وصلت الأفكار الموضوعة في المجتمع إلى مرحلة انبتت (انقطعت) صلتها بالأفكار المطبوعة انتقمت هذه الأخيرة لنفسها على شكل فقدان المجتمع لفعاليته.[1] فالمجتمع الإسلامي يدفع اليوم ضريبة خيانته لنماذجه الأساسية، فالأفكار – حتى تلك التي نستوردها – ترتد على من يخونها وتنتقم منه.[2]

ثالثا/ فكرة الحق والواجب عند مالك بن نبي.

لقد تحدث مالك بن نبي عن ثنائية الحقوق والواجبات في عدة مواضع منها إلى ضرورة تقديم الواجبات على المطالبة بالحقوق معتبرا أن أداء الواجب كفيل بضمان وتوليد الحقوق، وقد أكد على هذه الحقيقة ضمن رؤيته الاقتصادية حين جمع بين ثنائيتي الإنتاج والاستهلاك من جهة والواجبات والحقوق من جهة ثانية، معتبرا أن الواجب هو ما نقدمه للمجتمع أما الحق فهو ما نأخذه منه، وأسقط هذا المفهوم على عملتي الإنتاج- الاستهلاك، فالإنتاج هو ما نقدمه للمجتمع كما أن الاستهلاك هو ما نأخذه منه، وبناء على ذلك يرى بن نبي أن عملية الإنتاج كدعامة أساسية للبناء الاقتصادي تمثل حقيقة "أداء الواجب" من طرف أفراد المجتمع الذي يقوم بمختلف الأنشطة الفعالة لتدعيم الاقتصاد وخلق الثروة فرأس مال الاقتصاد هو العمل والإنتاج، وهو ما يرتب عنه عملية استهلاكية تمثل الجزء الثاني من المعادلة وهو " إكتساب الحقوق"، فأي إخلال بالواجب ينجم عنه خلل في استحقاق الحقوق، كما أن أي إخلال أو فتور في عمليات الإنتاج ينعكس سلبا على عملية الاستهلاك، يقول مالك بن نبي:" الإقلاع
الحضاري مرتبط بمعادلة تقدم الواجبات على الحقوق بل وتفوقها عليها."[3]

وفي سياق حديثه عن قصة الرسول صلى الله عليه وسلم مع الرجل المتسول الذي طلب منه الزكاة التي هي حق للفقير.[4] يقول مالك بن نبي مفصلا ومؤصلا لثنائيتي الواجب- الإنتاج والحق- الاستهلاك:"... فإذا

---

[1] محمد شاويش، **مالك بن نبي والوضع الراهن.** المرجع السابق، ص 94.

[2] مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.** دمشق: دار الفكر، 2002، ص 75.

[3] الطيب برغوث، **الطريق إلى عالم مالك بن نبي الفكري. المرجع السابق.**

[4] الحديث هو: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ، أَوْ مَنَعَهُ» صحيح البخاري - كِتَاب الزَّكَاةِ - باب الاستعفاف عن المسألة. حديث رقم: 1383
وفي هذا السياق أيضا حديث حكيم بن حِزام رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني ثم قال : يا حكيمُ، إن هذا المال خضر حُلو، فمن أخذه بسخاوة نفس؛ بورك له فيه، ومن أخذهُ بإشرافِ نفسٍ لم يبارك لهُ فِيه، وكان كالذِي يأكلُ ولا

حللنا هذه الأبعاد الخلقية لهذه القصة، نرى كيف يحل الرسول صلى الله عليه وسلم أزمة اجتماعية تعرض عليه صورة متسول من المساكين، فيفضل صلوات الله عليه حلها في نطاق (**الواجب**) على (**الحق**)، أو إذا قدرنا الأبعاد الاقتصادية فإننا نراه يفضل الحل في نطاق (**الإنتاج**) وكل مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم الأخرى تدعم هذا الاتجاه، بل هذا التوجيه لأمته إن شئنا في مجال الأخلاق أو في مجال الاقتصاد."[1]

وبناء على المنظور السابق فإن الاتجاه العام داخل المجتمع نحو معادلتي الواجب/ الحق والإنتاج/ الاستهلاك، هو الذي يحدد في الأخير الوضع الإقتصادي للبلد وفق ثلاثة احتمالات كما قررها بن نبي:

" فحسب تركيزه على مفهوم (الواجب) أو على مفهوم(الحق) تكون معادلته الاقتصادية إيجابية بفائض الإستهلاك، أو متعادلة إذا استوى الطرفان، أو سلبية إذا كان الاستهلاك أرجح في الميزانية.

- ففي الحالة الأولى: يستطيع المجتمع استثمار فائض إنتاجه في العمليات والميزانيات المقبلة **فهو مجتمع نام.**

- وفي الحالة الثانية: فإن كفتي ميزانه متعادلتان فلا ترجح واحدة على الأخرى، فهو لا يصعد ولا يهبط، **فهو مجتمع راكد.**

- أما في الحالة الثالثة: فكفة استهلاكه أرجح لا يصعد ولا يستقر، **فهو مجتمع ينهار**.

وتحويل التركيز من (الحق) إلى (الواجب) ليس بالأمر الذي يأتي عفويا أو بالمصادفة لأنه تحويل لعادات وطبائع منسجمة مع ما في الإنسان من ميل طبيعي إلى منطق السهولة." [2]

وهذا الطرح هو غاية في الأهمية، إذ يتطلب وعيا رسميا من قبل صانعي القرار وراسمي السياسات العامة بأهمية الاستثمار الإجتماعي والتوليف بين القوى المجتمعية وتحفيزها نحو العطاء والبناء، كما يحتاج ذلك إلى تضافر الجهود لتغيير الأفكار والطبائع السلبية في المجتمع وقبل ذلك تغيير أسلوب إدارة الاقتصاد والسياسات التي تقصي الأفكار والإبداع وتبعث على الخمول والإتكالية وعدم المحاسبة، مع ضرورة تبني سياسة تعليمية تهدف لإرساء منظومة فكرية وسلوكية صالحة ومؤثرة في نفوس الأجيال وباعثة على التغيير المستمر، والجمع بين التفكير والعمل وبين قوة وجودة السياسات وقوة وجودة التنفيذ.

يشبعُ، واليد العُليا خيرٌ من اليد السفلى. قال حكيم ؛ فقلت : يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيماً ليعطيه العطاءَ، فيأبى أن يقبل منه شيئا.

ثم إن عمر رضي الله دعاه ليعطيهُ، فأبى أن يقبلهُ، فقال: يا معشر المسلمين، أشهدكم على حكيم أني أعرضُ عليه حقهُ الذي قسمهُ الله له في هذا الفيء فيأبى أن يأخذهُ. فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد النبي ﷺ حتى تُوفي. **متفق عليه**.

[1] مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، ط9، دمشق: دار الفكر، 2009.، ص 88.

[2] المرجع نفسه، ص 88- 89.

رابعا/ المعوقات التنمية الاجتماعية لدى مالك بن نبي.

لقد تجمعت العديد من الأسباب التي أدت إلى الحالة الفكرية العربية الراهنة، وإن من الذائع إرجاع أسباب هذا النكوص إلى الفترة الإستعمارية، أين كان للمحتل دور سلبي في سلخ الهوية الوطنية وإعاقة الحركية الفكرية للمجتمعات العربية المستعمرة، إلا أن الأسباب الحقيقية هي أعمق من ذلك التعليل السطحي الساذج، ولعلنا نحاول استقصاء أبرزها في مايلي:

1- القابلية للاستعمار:

لقد شكلت مشكلة الاستعمار الذي اجتاح البلدان الإسلامية في غضون القرنين التاسع عشر والعشرين، أرقا فكريا للمفكر مالك بن نبي، جعله لا يقنع بالمبررات الظاهرية التي قدمت لتفسير هذه المعضلة، بل راح يوغل في غياهبها ويحلل علاقاتها السببية للوصول إلى مكمن الداء الحقيقي، مستقرئا حال الأمة عبر مراحلها التاريخية، ليصل في نهاية المطاف إلى استكشاف داء **" القابلية للاستعمار"** الذي ينطبع في المخيال الجمعي للشعوب المستعمرَة، ويؤدي بها إلى الخنوع والوقوع فريسة سهلة المنال في يد جلادها، ففي كتابه " شروط النهضة " تحدث ابن نبي عما يسميه "مُعَامِلَيْنِ" فَعَلَا فِعْلَهُمَا في الإنسان المستَعمَر:" (المعامل الاستعماري) و(معامل القابلية للاستعمار)...**فالمعامل الاستعماري** هو عامل خارجي يفرض على الكائن المغلوب على أمره الذي يسميه المستعمِر –الأهلي- نموذجا محددا من الحياة والفكر والحركة، وحين يكتمل خلق هذا النموذج يظهر من باطن الفرد **"معامل القابلية للاستعمار"** وهو معامل يجعل الفرد يستبطن مفاهيم المستعمِر عنه ويقبل بالحدود التي رسمها لشخصيته هذا المستعمِر، وليس هذا فحسب بل يصبح يدافع عنها ويكافح ضد إزالتها ... فعامل القابلية للاستعمار كما يشرحه مالك بن نبي هنا هو العامل الداخلي المستجيب للعامل الخارجي، إنه رضوخ داخلي عميق لعامل الاستعمار، يُرَسِّخُ الاستعمار ويجعل التخلص منه مستحيلا." [1] ولهذا فهو يقول:" هذه الملاحظة الاجتماعية تدعونا لأن نقرر أن الاستعمار ليس من عبث السياسيين ولا من أفعالهم، بل هو من النفس ذاتها التي تقبل ذل الاستعمار والتي تمكن له في أرضها، وليس ينجو شعب من الاستعمار وأجناده إلا إذا نجت نفسه من أن تتسع لذل مستعمر، وتخلصت من تلك الروح التي تؤهلها للاستعمار."[2] وقد ركز مالك بن نبي على هذا المصطلح ونبه إليه،" لأن كثيرا من المسلمين يحاولون تعليق تخلفهم وضعفهم وقلة حيلتهم على الاستعمار، فأراد أن يرجع المشكلة إلى سببها الأول وهو القابلية للاستعمار، أي إلى الخسائر التي ألحقناها بأنفسنا قبل أن نتحدث عن الخسائر التي ألحقها بنا الآخرون، مطابقة لقوله تعالى:**" قل هو من عند أنفسكم" (آل** عمران: 165)" [3]

---

[1] محمد شاويش، **مالك بن نبي والوضع الراهن**. ط 1، المرجع السابق ، ص 12.

[2] مالك بن نبي، **شروط النهضة**. دمشق: دار الفكر، (د ت ن)، ص 33.

[3] محمد العبدة، **مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي**. ط1، دمشق: دار القلم، 2006، ص 81.

2- طغيان النزعة الذرية: يرى مالك بن نبي أن فشل مختلف الجهود المبذولة من أجل تحقيق نهضة عربية إسلامية، إنما يرجع إلى غياب الرؤية المتكاملة، التي تدرس المشكلات باعتبارها مترابطة مع بعضها البعض ترابطا عضويا يجعل من كل مشكلة جزئية نتيجة لمجموعة من المشكلات السابقة لها وسببا جزئيا لما بعدها، و غياب هذه الرؤية التي تسمح بتحديد حلول موفقة لمختلف المشاكل التي تعاني منها الأمة، هو الذي أدى إلى سيادة النزعة الذرية أو التجزئية والتي تعني ": نزوع العقل إلى التجزئة والذرة الفكرية، فتصبح المشكلات العامة مجرد أجزاء مفككة، كل جزء قائم بذاته في تصورات العقل، وبالتالي تغدو مجرد أكوام، تفتقد صورة التكامل وتبتعد عن منهج التركيب المتآلف".

ويرى بن نبي أنه بمجرد تصفحنا لمختلف الدراسات والمشاريع النهضوية: نجد أن كل مصلح قد وصف الراهن تبعا لرأيه أو مزاجه أو مهمته، فرأى رجل سياسي كجمال الدين الأفغاني أن المشكلة سياسة تحل بوسائل سياسية، بينما قد رأى رجل دين كالشيخ محمد عبده أن المشكلة لا تحل إلاّ بإصلاح العقيدة والوعظ"،أي أن جمال الدين الأفغاني:"قصر التغيير الكلي على بعض جزئياته فهيمنت النظرة الجزئية، وحصر الهم في التغيير السياسي، وقد صادف الجهد المبذول قصورا في تحويل تلك النظرة إلى قيم اجتماعية جديدة صالحة لقيادة الإنسان وتغييره، وخاصة تغيير إنسان ما بعد الموحدين" أما محمد عبده فتميز مشروعه "بغياب النظرة الشمولية لكيان عملية التغيير، فجزئت المشكلات إلى مكوناتها الجزئية فمرة التعليم ومرة مضامينه(علم الكلام) غير منتبهين إلى التحليل المنهجي للمشكلات، والكشف عن أسبابها الموضوعية" وهذا الطرح التجزئي لمشكلات النهضة يبتعد كليا عن حقيقة المرض الذي يعاني منه المجتمع الإسلامي ويركز كل اهتماماته على أعراضه المتغيرة، مبتعدا كل البعد عن جوهر المشكلة، وتناول المشكلة بهذه الكيفية لا يتضمن دراسة مُرْضية للمجتمع الإسلامي، دراسة لا تدع مجالا للظن حول المرض الذي يتألم منه منذ قرون.[1]

3- تحلل شبكة العلاقات الاجتماعية

إن الروابط الاجتماعية من منظور مالك بن نبي هي نتاج تأثير وتفاعل واندماج ثلاثة عوالم أساسية وهي:" عالم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء، ولكن هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة بل تتوافق في عمل مشترك، تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من(عالم الأفكار) يتم تنفيذها بوسائل من(عالم الأشياء)من أجل غاية يحددها(عالم الأشخاص)." [2]

---

[1] محمد لعاطف، **معوقات النهضة وطرق علاجها في فكر مالك بن نبي**. رسالة ماجستير، قسم الفلسفة، كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر، 2008/2007، ص 45.

[2] مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**. تر: عبد الصبور شاهين، الجزائر: دار الوعي، 2013، ص 27.

" فتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية هو في حقيقته تمزق لعالم الثقافة باعتبارها المحيط الذي يصوغ كيان الفرد، كما أنها مجموعة من القواعد الأخلاقية والجمالية والمنطق العملي والصناعة، مما يعود بالإخفاق على الجهود الاجتماعية والفردية، لأن كل علاقة فاسدة بين الأفراد تولد في ما بينهم عُقَدًا، كفيلة بأن تحبط أعمالهم الجماعية... فالعلاقة الفاسدة في عالم الأشخاص لها نتائجها السريعة في عالم الأفكار وفي عالم الأشياء."[1] فبناء شبكة العلاقات الاجتماعية مرده إلى عنصر أساسي هو " الإنسان أو تفاعل الفرد داخل المجتمع"، فالإنسان هو الذي ينتج الأفكار ويرسم الأهداف ويستغل الوسائل، وبفساد هذا العنصر الحيوي تفسد شبكة العلاقات داخل المجتمع، ومن مظاهر هذا الفساد على المستوى الفكري بحسب ابن نبي:

1/افتقاد الدقة في التفكير. 2/افتقاد العقل التطبيقي. 3/ الفصل بين النظروالتطبيق. 4/ افتقاد الحصانة أو الغفلة عن أساليب الصراع الفكري من قبل العدو.

أما على المستوى النفسي الاجتماعي فيظهر ذلك في:

1/الانفصال بين القول و العمل. 2/ الإحباط في الجهود. 3/ الشعوربالنقص. 4/ الانعزالية. 5/ الزهد في معرفة عالم النفوس. 6/ الانتكاس والخِواء.[2]

إن هذه السمات التي قدمها مالك بن نبي بعد تشريح الطبيعة الفكرية والنفسية والاجتماعية للمجتمعات الإسلامية، تمثل أسباب ركود العقل وتعطل آلة الإبداع والاجتهاد التي وضعت العالم الإسلامي في حالة من الغفلة وعدم القدرة على الحركة، ناهيك عن طبيعة الأنظمة السياسية التي تحكم أغلب دولنا العربية والإسلامية المتسمة بالاستبداد وعدم الرشد، والتي بدورها ساهمت في ترسيخ حالة الوهن النفسي واتهام الذات واعتبارها قاصرة عن إدراك منازل التطور والإبداع والارتقاء الحضاري.

4- غياب النقد الذاتي وغلبة فكر التبرير: إن مختلف المشاريع النهضوية العربية تعاني من غياب ورفض النقد الذاتي الذي يمكن من معرفة مختلف الأخطاء والثغرات لأجل مراجعتها بين الحين والآخر، مما يساعد على مواصلة المسير في طريق النهضة فوق المسالك السليمة، ومن جهة ثانية يساعد على الاستفادة من نتائج هذه الدراسات النقدية وتوظيفها لاختزال مسافة السير أو بعبارة أخرى حتى لا تتكرر نفس الأخطاء، ويعود سبب ذلك الرفض إلى:" انتشار ثقافة التلقين والتسميع والتقليد، على حساب ثقافة التفقيه والتأصيل والنقد والاجتهاد والإبداع"، بحيث صعبت علينا مواكبة مستجدات الحياة المعاصرة، وصرنا نرى مواقف آلية تكاد تخلو من الأصالة والفعالية والمصداقية.[3]

---

[1] عبد الله بن حمد العويسي، **مالك بن نبي: حياته وفكره.** ط1، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2012، ص 455.

[2] المرجع نفسه، ص 456.

[3] المرجع نفسه، ص 47.

ويقول مالك بن نبي رحمه الله:" النقد الذاتي عامل تطهير جوهري للنفس والمجتمع من أسباب الضعف والاختلال، يجب أن ينطلق إلى أبعد مدى في حياتنا، وأي تعطيل له، يعد خدمة للاستعمار والاستبداد." [1]

إن غياب النقد الذاتي يدفع دائما إلى التهرب من المسؤولية: "إذ يحاول زعماء الحركة الحديثة أن يلصقوا أسباب عطلهم بالاستعمار، ولكن ذلك ليس ضربا من التعلل، إذ يقصدون من ذلك الهرب من مسؤوليتهم الحقيقية، ولقد شاركهم في تعللهم أيضا دعاة الحركة الإصلاحية، أولئك الذين لم يبحثوا مطلقا عن الأسباب الداخلية لعجزهم، بل اكتفوا بإسناد التبعية إلى السلطة الأجنبية، فالتياران كلاهما لا يهتمان بعلاج نقائصهما."[2]

ويرجع مالك بن نبي سبب غياب آلية النقد الذاتي في التفكير والعقل العربي إلى " فعل النقد في حد ذاته" حيث ينظر إليه بعين الريبة والجرم والسلب، فهو يقول: " النقد لم يدخل بعد في عاداتنا، ولم يستقر في جونا العقلي، وإن الكلمة ذاتها لم تبرح أجنبية عن قاموسنا أو أنها تعني شيئا آخر، كأن كلمة "نقد" وكلمة "تشويه" مترادفتان في لغتنا." ويشير الباحث زكي أحمد إلى أن:" هناك إقرار من العديد من المفكرين أننا نعاني في حياتنا الثقافية من أزمة نقد، وهذا أخطر إشكاليات الثقافة، فأزمة النقد في أساسها هي أزمة في الثقافة، كما يكرس من جهة أخرى سلبيات الثقافة وآفاتها.[3]

5- غياب الوعي المنهجي: يرى بن نبي أن الجهود النهضوية وإن اتسمت في معظم الأحيان بالنية الصادقة والرغبة الملحة لتكسير قيود التخلف، إلاّ أن غياب الوعي بسنن التغيير لدى كل من رجال الإصلاح وتيار التحديث هو ما أدى إلى فشل المشروع النهضوي العربي وذلك ":لأن أي اختلال في الوعي المنهجي، في أبعاده المعرفية والإجرائية والأخلاقية، سينعكس مباشرة على الوعي والأداء الثقافي، وهذه الانعكاسات السلبية المتتالية، تؤثر مجتمعة على مستوى الوعي والأداء الحضاري للفرد والمجتمع، وتدفع بأوضاع الأمة إلى المزيد من الضعف والتقهقر والاستعابات الحضارية المضادة".[4] وفي هذا السياق يشير مالك بن نبي أن:" أعظم زيغنا وتنكبنا عن طريق التاريخ، أننا نجهل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا، ولعل أكبر أخطاء القادة أنّهم يسقطون من حسابهم هذه الملاحظة الاجتماعية، ومن هنا تبدأ الكارثة ويخرج قطارنا عن الطريق حيث يسير خبط عشواء."[5]

ومن أقوال مالك بن نبي في هذا الصدد:

---

[1] الطيب برغوث، **الطريق إلى عالم مالك بن نبي الفكري**. مقال مأخوذ من موقع:
http://www.binnabi.net/infos/detail/KWi786YI055KkI5/%D8%A7%D9%84%D8%B7%D8%B1%D9%8A%D9%82-%D8%A5%D9%84%D9%89- بتاريخ: 2017/04/13 على الساعة: 23:57.

[2] مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**. دمشق: دار الفكر،2002 ، ص 72.

[3] محمد لعاطف، **معوقات النهضة وطرق علاجها في فكر مالك بن نبي**، المرجع السابق، ص 48.

[4] المرجع نفسه، ص 49.

[5] مالك بن نبي، **شروط النهضة**. دمشق: دار الفكر، 1986، ص 47.

* الطريق غير المنهجي هو أطول الطرق في عملية البناء الحضاري.

* إن جهودنا التجديدية فيها حسن النية وليس فيها رائحة منهج.

* المنهج العلمي مصل واقي ضد مرض الثرثرة.[1]

إن من لوازم غياب التفكير المنهجي في مشاريعنا الإصلاحية هو طرح الحلول غير الموضوعية وإضاعة كثير من الوقت والجهد والمال في سبيل تحقيق أهداف لم تؤت من أبوابها فاستنزفت الموارد في طريق طويل شاق ومحفوف بالمكاره، فكان سعينا أشبه بحاطب ليل أو كمن يخبط خبط عشواء.

6- الإغتراب الزماني والمكاني: الأمة التي تستيقظ وتنتبه لما حولها بعد فترة طويلة من النوم، لابد لها أن تجد نفسها محاصرة بمشكلات متعددة ومعقدة، وتحتاج إلى حلول مستعجلة، وفي هذه المرحلة تسود الفوضى والارتباك والتذبذب في كيفية التعامل مع مشكلات الراهن أو الواقع، وهنا يظهر اتجاه محافظ متشبث بأذيال الماضي، واتجاه تقدمي يسعى لاستعارة الحلول من الحضارة الغربية.

ومعالجة مشكلات العالم الإسلامي وفقا لما سبق ذكره، يؤدي بالتيار الحديث، وباتجاه الإصلاح معا إلى ذلك الخليط الملفق من محدثات مستعارة أو رواسب متوارثة. هذه الفوضى المكونة من عناصر لم تهضم أو تتمثل، تنفجر في صورة تنافر عنيف.[2]

ويؤكد مالك بن نبي هذه الحقيقة قائلا:" إن العالم الإسلامي أصبح في هذه الملابسات يعاني الصدمة التي أصابته بها الثقافة الغربية، ويعاني بسببها على وجه الخصوص أثرين: مواجهة مركب النقص محسوس من ناحية، ومحاولة التغلب عليه من ناحية أخرى حتى بالوسائل التافهة.

لقد أحدثت هذه الصدمة عند قبيل من المثقفين المسلمين شبه شلل في جهاز حصانتهم الثقافية حتى أدى بهم مركب النقص إلى أن ولوا مدبرين أمام الزحف الثقافي الغربي، وألقوا أسلحتهم في الميدان، كأنّهم فلول جيش منهزم في اللحظة التي بدأ فيها الصراع الفكري يحتدم بين المجتمع الإسلامي والغرب، فأصبح هذا القبيل من المثقفين يبحث عن نجاته في التزيي بالزي الغربي، وينتحل في أذواقه وسلوكه كل ما يتسم بالطابع الغربي حتى ولو كان هذا الطابع ليس إلاّ مظهرا لاشيء وراءه من القيم الحضارية الغربية الحقيقية."[3]

7- جمود مناهج التعليم: "حافظ التعليم على صيغته السابقة شكلا ومضمونا" الحقائق مدفونة في جمل زائفة" و" علم غزير" فأصبحت ثقافة أثرية تجتر التراث، وعوض أن يتقدم العمل العلمي والفكري انتكس، ومضمون التعليم في مدارس الاصلاح هو المضمون نفسه منذ ستة قرون، والعلم الذي اقتبسوه

---

[1] الطيب برغوث، **الطريق إلى عالم مالك بن نبي الفكري. المرجع السابق.**

[2] محمد لعاطف، **معوقات النهضة وطرق علاجها في فكر مالك بن نبي**، المرجع السابق، ص 50.

[3] مالك بن نبي، **القضايا الكبرى.** دمشق: دار الفكر، 2000، ص 170.

من جامعات الغرب لم يكن وسيلة للإسعاد بل كان طريقا إلى المظهرية، وهكذا يتجمد الفكر ويتحجر في عالم لم يعد يفكر في شيء، لأن تفكيره لم يعد يحتوي صورة الهم الاجتماعي".[1]

مما لا شك فيه أن المنظومة التعليمية هي عصب الحياة الفكرية والمعرفية لأي مجتمع، وهي أساس النهضة الاقتصادية والإجتماعية والثقافية، فالأمم الناهضة تشترك كلها في تجربتها التنموية أنها انطلقت من إصلاح المنظومة التربوية والتعليمية إصلاحا جذريا وموضوعيا بعيدا عن الاستقطاب الإيديولوجي والصراع الفكري المتضارب، وهكذا انطلقت أندونيسيا وماليزيا وسنغافورا واليابان وتركيا وكل الدول الناشئة حديثا.

8- ذهان السهولة وذهان الاستحالة:

تبني مالك بن نبي نظرية الحدين، التي تعكس أن الفكرة أو الشيء يقع بين طرفين متناقضين: الإفراط والتفريط، وضعهما كمقياس ومعيار فعالية الأشياء أو عدمها، والإنسان السوي هو من يستطيع أن يساوي بين الحدين ولن يستطيع ذلك إلا في حالة وجود نسبة متساوية بين الاستجابة والتحدي، وعندما تفقد تلك السمة يصبح الإنسان غير سوي، تتحكم فيه عقدتين فإما يفرط أو يفرّط.

وإنسان مابعد الموحدين أصيب بذهانين (deux psychoses) السهل والمستحيل وذهان السهولة ينطلق من شعار «كل شيء سهل» مما يوحي بعدم الجهد أو النشاط ويفضي إلى الكسل والدعة، فالمسلم اللاشاهدي يسهل الأمور حتى تعتقد أن الأمر لا يحتاج إلى أدنى طاقة أو عمل، مما يؤدي إلى عدم التخطيط والتقدير، فيظهر داء التأجيل أحد ألد أعداء الوقت، وبالتالي يحدث الشلل الاجتماعي لخلل الوظائف في السلم الاجتماعي، يقول مالك بن نبي: «طالما ظل الفكر عاطلا منعدم التأثير بقي النشاط حركة وفوضى، وتزاحما يبعث على الضحك والرثاء، وليس هذا سوى شكل من أشكال الشلل الاجتماعي وليت الأمر توقف عند ذهان السهولة فحسب، بل امتلكه ذهان أخطر من الأول، تمثل في ذهان المستحيل الذي نراه في شمال إفريقيا تحويه ثلاث شعارات:

أ_ لسنا بقادرين على فعل شيء لأننا جاهلون (نقص العلم).

ب – لسنا بقادرين على أداء عمل ما لأننا فقراء (نقص المادة).

ج – لسنا بقادرين على تصور الأمر لأن الغزو الثقافي ببلادنا (التبعية)

ومن خلال الشعارات السالفة نلاحظ أن العطالة مست ثلاث جوانب في الإنسان (أ= عطالة الروح والقلب)، (ب = عطالة اليد)، (ج = عطالة العقل).

وذهان السهولة والمستحيل يعدم العلاقة بين الفكر والنشاط، ويجعل الفوضى تسود الأعمال، فيسود الاضطراب ويجد الإنسان نفسه في حالة هيجان تعكس فشله، فتتصدع العلاقة بين ذاته

[1] عمار جيدل، **نقد مسالك المسلمين في التغيير الإجتماعي عند مالك بن نبي**. مجلة رؤى، مجلة فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل، العدد 20، سنة 2003، ص 74.

والموضوع، يعبر مالك عن هذه الحالة بقوله: «فلكل نشاط عملي علاقة بالفكر، فمتى انعدمت – هذه العلاقة – عمي النشاط واضطرب، وأصبح جهداً بلا دافع، وكذلك الأمر حين يصاب الفكر أو ينعدم فإن النشاط يصبح مختلا مستحيلا، وعندئذ يكون تقديرنا للأشياء تقديرا ذاتيا، وهو في عرف الحقيقة خيانة لطبيعتها وغمط لأهميتها، سواء كان غلوا في تقديمها أم حطا من قيمتها" وتبرير عدم القدرة على فعل نشاط ما بالمستحيل، ينبئ أن الإنسان بلغ من التسيب الحضاري درجة قصوى، يجعل منه مجرد كتلة من اللحم متحركة، واستعمال بن نبي لفظ «خيانة» يبرز أن منطق السهل والمستحيل جعلا العالم الإسلامي يفقد الفعالية الحضارية والمغامرة المتجلية في الفتوحات الإسلامية وتحمل الصعاب والمشقة.[1]

خامسا/ التنمية الاجتماعية: بين البناء والتكديس.

إن تحقيق نموذج اقتصادي فعال وآمن يتطلب إعادة هندسة الوعي المجتمعي، من خلال تغيير الذهنيات والأفكار التي ساهمت في الإخفاق والهدر – النقد الذاتي- والتركيز في تقييم نتائج التنمية على الكيف وليس الكم، وعلى النوع والجودة وليس على العدد والأرقام، فليست العبرة بعدد السكنات المنجزة بقدر ما تكون العبرة في قيمة السياسة السكانية المنتهجة وعدالتها في التخفيف من أزمة السكن على أرض الواقع، وليست العبرة بملايين المتخرجين من الجامعات بقدر ما هي في جودة ما تلقونه من تعليم وجودة ما يقدمونه من أداء وكفاءة، وكذا جودة السياسات المتخذة للاستثمار في الملايين المتخرجة من الجامعات؟ فمعيار نجاح النموذج الاقتصادي هو الاحتكام إلى النتائج والواقع وليس لمنطق التنظير والأرقام الخالية من الروح وهذا ما يسميه مالك بن نبي " **منطق التكديس Logique empilable** ".

وقد أكد مالك بن نبي على هذه الحقيقة في غير ما موضع منوها بالتجربة الألمانية عندما انطلقت من رأسمالها الحقيقي الموجود في رأس كل ألماني، لأن استيراد القوالب الجاهزة لا يؤسس مجتمعا ولا حضارة، وإنما يعطيك ركاما أو تكديسا، وينمي في نفوس أفراد تلك الشعوب صفات الإتكالية و اللامسؤولية والخمود والجمود الفكري والعملي.

فبناء **مجتمع وظيفي Société fonctionnelle** يقتضي" تجنب الإتكال على الغير وتحاشي أسلوب الإستيراد والتكديس، فلا يتحضر شعب إلا إذا امتلك وعيا حضاريا يميز بين البناء والتكديس وبين الإنتاج والإستيراد، فالبناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة لا التكديس ولنا في أمم معاصرة أسوة حسنة، إذ علينا أن ندرك بأن تكديس منتجات الحضارة الغربية لا يأتي بالحضارة."[2]

إن المُلَاحَظُ في برامج السياسات العامة ومشاريع التنمية المحلية المستدامة في بلاد العالم النامي

---

[1] بوعرفة عبد القادر، نظرية التصابي عند بن نبي و أفق النقد الحضاري. على الرابط:
http://iranarab.com/Default.asp?Page=ViewArticle&ArticleID=547&SearchStr=ViewAll

[2] جلالي بوبكر، **البناء الحضاري عند مالك بن نبي**. (الجزائر: دار المعرفة، د ت ن)،ص 97.

بما فيها الجزائر هو مراهنتها على الموارد المادية والمالية (الكم) وجعلها معيارا مرجعيا للإستثمار، فنسمع الحديث عن تخصيص الملايير في مشاريع تنموية مختلفة من دون الحديث عن قوة وجودة الأفكار Qualité des idées المسيرة لهذه الموارد المالية الضخمة، والتي ما تلبث أن تتحول إلى هياكل وتجهيزات تتعرض إلى التلف والتخريب بعد مدة وجيزة، أو تفقد فاعليتها في الواقع ولا تعكس حجم الأغلفة المالية المخصصة لها، وللأسف أصبح هذا روتينا رسميا ثابتا، فنتفاخر بإنشاء كذا مؤسسات تربوية وجامعات ومستشفيات وشركات ومباني حكومية ومحلات تجارية دون أن نتساءل عن مردودها الإقتصادي والتعليمي والإجتماعي والثقافي والتنموي، وهل يكافئ ذلك أو يفوق مستوى الأهداف المرجوة من هذه المشاريع التنموية وهل تم تحقيق ذلك فعليا على أرض الواقع؟.

إن رؤية المجتمعات الحضارية الرائدة قد تجاوزت مرحلة **تثمين " المادة" Évaluation du matériel إلى تثمين " الأفكار" Évaluation des idées** ومدى قوتها وفعاليتها في صناعة التغيير نحو الأحسن، فالبناء الإقتصادي للدول ينطلق أساسا من بناء الفرد وتهيئته ليلعب دورا حاسما وإيجابيا في بيئته المحلية من خلال تحفيزه نحو العطاء والمشاركة في تقديم الرؤى والأفكار الحية والعملية.

ولقد أشاد مالك بن نبي رحمه الله بمكانة **الأفكار الفعالة Les idées efficaces** في دفع عجلة التنمية واعتبرها أساس الإقلاع والتطور الإقتصادي، بل أكد بما لا يدع مجالا للشك أن رأسمال الأفكار و المعرفة هو عصب التنمية وهو أولى بالاستثمار من عالم الأشياء أو الموارد المادية الأخرى، وهو الأمر الذي لاحظ غيابه عن برامج ونشاطات التنمية في الجزائر مما أفقدها روحها وجدواها وفعاليتها، حيث يقول مالك بن نبي رحمه الله:" **وبملاحظتنا لبعض النشاطات النموذجية في الجزائر، تمكنت في دراسة ظهرت لي منذ بضعة سنين من الإشارة بالأرقام إلى تبديد مفرط لطاقتنا الإجتماعية وتبذير مسرف وغير محسوس في وسائلنا وهذا مظهر من مظاهر اللافعالية التي تعزى إلى العجز في أفكارنا**." [1] فمالك بن نبي عليه رحمه الله يرى أن امتلاك وتوفر الوسائل المادية والطاقات البشرية لا يؤتي ثماره ولا يحقق تنمية حقة في ظل غياب رشادة الأفكار وفعاليتها، وهذا يوضح مركزية وأفضلية الموارد الفكرية والمعرفية على الموارد المالية والمادية، بل إن هذه الأخير محكومة وموجهة بمدى فعالية منظومة الأفكار المجسدة في خطط وسياسات التنمية على المستوى الوطني والمحلي.

كما يعيب مالك بن نبي إهمال عالم الأفكار في مجتمعاتنا الإسلامية والعربية وعدم إيلائها أية أهمية أو إدراك دورها في الإقلاع الإقتصادي والطفرة التنموية حيث يقول:" **إن الأفكار لا تتمتع في المجتمع الإسلامي بقيمة ذاتية، تجعلنا ننظر إليها بصفتها أسمى المقومات الإجتماعية، وقوة أساسية تنظم و توجه قوى**

[1] مالك بن نبي، **فكرة كمنويلث إسلامي**. دمشق: دار الفكر، 2000 ص 61.

التاريخ كلها، وتعصمها بذلك من محاولات الإحباط مهما كان نوعها."[1] إن الفقر الحقيقي من منظور مالك بن نبي ليس في قلة الموارد وإنما في فقر الأفكار وضعف آليات الإستثمار وانعدام الرؤية الرشيدة والسليمة لمشاريع التنمية، وفي هذا السياق يقول رحمه الله: " **ونلاحظ هنا أن القضية لا تتصل بفقر في الوسائل لأن العمل هو الذي يخلقها ولكن بفقر في الأفكار.**[2]

سادسا/ أبعاد التنمية الاجتماعية وفق منظور مالك بن نبي.

كثيرا ما نقف في تحليلاتنا الفكرية للظواهر والإختلالات عند الأسباب الظاهرة والمباشرة، ونَغْفَلُ عن تأثير الأدواء الخفية والعميقة التي تمثل المصادر المغذية للأسباب التي بدورها تحيل إلى النتائج نفسها، فالقضاء على أسباب المشكلة وترك أدوائها وأصولها سيؤدي إلى إعادة إنتاجها مرات عديدة في صور ومظاهر متجددة.

وهذا ما دفع مالك بن نبي إلى عدم الوقوف على أطلال المشكلة الحضارية واصفا لها بل أوغل في البحث عن "مسبباتها الخفية" فيما وراء حجاب "الأسباب الظاهرية" فأبدعت قريحته أفكارا فذة ونحتت مصطلحات جديدة من قبيل: القابلية للاستعمار، الفعالية الفكرية، العقل التطبيقي، الأفكار القاتلة والميتة، الأفكار الموضوعة والمصنوعة، الأفكار المخذولة، البناء والتكديس، الاغتراب الزماني والمكاني، النزعة الذرية، الإمكان الحضاري والإرادة الحضارية، ذهان السهولة وذهان الاستحالة...الخ.

إن مالكا يرجع أسباب الإنتكاسة الفكرية في المجتمعات المسلمة إلى عوامل ذاتية أكثر منها خارجية، فنمطية التفكير السائدة المتسمة بالجمود ومعاكسة السنن الكونية، والميل إلى التقديس والتقليد والتكديس، بدل التقعيد والتجديد والتأسيس، هي سمات تحتاج إلى تغيير جذري للأنفس وانقلاب ثوري جامح على الأصول المغذية لحالة الوهن الحضاري.

وكمدخل أولي لعملية الإصلاح الشامل، يؤكد مالك بن نبي على ضرورة التخلص من الرواسب القاتلة المتمثلة في الأفكار والعادات المعيقة لمسار الإقلاع الحضاري، والمترسخة في الوجدان الجماعي للمجتمع عبر سنين الإنحطاط، فيقول مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة:" وإنه ليجب بادئ الأمر تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلقي والإجتماعي، مما فيه من عوامل قَتَّالَةٍ ورِمَمٍ لا فائدة منها حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة. وإن هذه التصفية لا تتأتى إلا بفكر جديد يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع أصبح يبحث عن وضع جديد، هو وضع النهضة."[3]

---

[1] مالك بن نبي، **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة**. دمشق: دار الفكر، ط9، 2009، ص 82.

[2] مالك بن نبي، **بين الرشاد و التيه**. دار الفكر ، دمشق، 2002، ص175 .

[3] مالك بن نبي، **شروط النهضة**. المرجع السابق، ص 86.

وترتكز استراتيجية التغيير الحضاري من حالة الوهن والسكون إلى حالة الفعالية والتجديد، عند مالك بن نبي على بعدين أساسيين هما:

1- معرفة معوقات التغيير ومن ثم تصفيتها وإزالتها، وهو ما يسميه مالك بن نبي بعملية **التجديد السلبي**، أي أنه تجديد يتم بطريقة سلبية تُحدث القطيعة مع رواسب وموروثات الماضي.

2- معرفة عوامل التغيير ومن ثم العمل على ترسيخها، وهو ما يسميه مالك بن نبي **بالتجديد الإيجابي**، الذي يقوم بوظيفة مد وتطعيم الثقافة بأفكار جديدة بناءة تصلها بالمستقبل وبالحياة الكريمة.[1]

فالقضاء على داء القابلية للإستعمار الذي أورث حالة الوهن الحضاري في مجتمعاتنا العربية، يتطلب تغييرا في الذات وإصلاحها والثورة على القوالب الموروثة التي تبعث على الركود لا التجديد والنظر للحال دون المآل، والتشبث بالماضي دون المستقبل، وهذا كله يستدعي نمطا فكريا وسلوكيا حديثا وجيلا جديدا مغايرا في تفكيره لسابقه، ولهذا يقول الأستاذ عمر مسقاوي رفيق درب مالك بن نبي:" فالخروج من القابلية للإستعمار ومن عصر ما بعد الموحدين يتطلب جيلا جديدا ومعايير جديدة، ويبدو لنا كما هو ظاهر في مقدمة كتابه (وجهة العالم الإسلامي) أن ابن نبي آثر وضع الجزء الثاني من كتابه تحت أبصار جيل جديد في تكوينه الفكري والتربوي...فالشفاء من مرض القابلية للإستعمار كما رأى في تجربته في القاهرة ثم في الجزائر فيما بعد، يتطلب وعيا أكبر في الحياة الداخلية للفكر الإسلامي في العصر الحديث، خصوصا في الجانب التربوي الذي اهتم به في كتابه (شروط النهضة) ليسلك الفكر الإسلامي مداه العالمي، وأول طريقه هو تصفية الفكر الإسلامي من القابلية للاستعمار نفسيا، ثم من تبعية محور واشنطن-موسكو كما شرحه في كتابه (الفكرة الإفريقية الآسيوية)."[2]

وكاقتراح من الباحث لتشخيص ومعالجة المعضلة الفكرية للمجتمعات العربية الراهنة، يتطلب الأمر -كخطوة أولية- تبني منهجية علمية في تحليل النسق الإجتماعي والثقافي والفكري والسياسي والاقتصادي للمجتمعات العربية، والعمل على مايلي:

أولا/تحديد مكامن الاختلال والاعتلال:

1- وذلك بتوصيف طبيعة الحالة الفكرية المعاصرة والأسباب المتحكمة فيها.

2- استقراء العوامل والمسببات العميقة للجمود الفكري عبر المسارات التاريخية.

3- وضع تصور واضح لتقسيمات الأفكار وقيمتها واتباطاتها بالوهن الحضاري.

4- تحديد مصادر تغذية الوهن الحضاري واستمرارية العجز الفكري الذاتي والخارجي بالمجتمعات العربية.

---

[1] دهيمي زينب و فريد بوبيش، الإستراتيجية التربوية للتغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي. مقال منشور **بمجلة دراسات نفسية وتربوية**، مخبر تطوير الممارسات النفسية و التربوية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة(الجزائر)، العدد 11ديسمبر2013، ص 130.

[2] عمر كامل مسقاوي، **في صحبة مالك بن نبي مسارنحو البناء الجديد**. ط1، دمشق: دار الفكر، 2013،ص 1269.

ثانيا/إرساء أسس و آفاق الانبعاث الفكري والحضاري:

1- وذلك بإعادة إحياء حركية العقل الجمعي، واستعادة ثقته بقدراته الذاتية على البناء والارتقاء، وذلك بتفعيل حركية المراكز الإقليمية والدولية للأبحاث والمعارف والدراسات المختلفة.

2- تغيير الِجبلَّاتُ الرديئة للنفوس؛ الموروثة عن عهود الانحطاط، والتشبع بالقيم الإيجابية والفعالة المحفزة على العمل والجودة كمَعالمَ هادية للفكر والإرادة.

3- وذلك بتطوير أداء المؤسسات التعليمية ووسائل الإعلام وترقية الخطاب المسجدي وتفعيل دور الأسرة والمنظمات المدنية في مجال الفكر وبناء الانسان.

4- وضع استراتيجية مجتمعية شاملة قائمة على الوعي والتنمية الفكرية وتشجيع القراءة والاستثمار في المورد البشري وتنمية التفكير الإبداعي.

5- الاهتمام بالتعليم والمناهج الدراسية وترقية تنافسية وجودة الأداء التعليمي والبيئة التعليمية العامة (السياسات العامة، البيداغوجيا، الأساتذة، النظام التعليمي).

6- الاهتمام الرسمي بالوظائف التي تضطلع ببناء الإنسان وتنمية الوعي والمعرفة والتمكين لها مجتمعيا ووظيفيا وماديا ومهاريا، كالأساتذة والمربين والمعلمين والأطباء والأئمة والإعلاميين...الخ.

الخاتمة:

إن عالمنا العربي-الإسلامي ورث غداة الاستقلال وضعا اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا مأزوما ومكلوما، وفي الوقت ذاته استفاق على واقعٍ فكري وعلمي أشد بؤسا وأشد تنكيلا، إذ عمد المستعمِر إلى تشويه العقل العربي وتفريغه من أيّ "كفاءة إدراكية" وقدرة على التحليل والتفكير والإبداع، من خلال استراتيجيات وعمليات نفسية وفكرية دقيقة وممنهجة استهدفت آلة الفكر واللغة ومقومات الهوية والشخصية الوطنية، فأفرغتها من محتواها الأصيل وغمرتها بالدخيل الهزيل، من خلال تغذية العقل وشحنه بمنظومة من الأفكار القاتلة والميتة وعديمة الفعالية لتجعله مغتربا عن كيانه، مستشعرا للعجز في ذاته، فاقدا للثقة في إرادته، مأسورا بإرادة غيره وقيادته.

إلا أن إلقاء التَّبِعَةِ على المستدمر وتحميله مسؤولية كل نكبات العالم العربي-الإسلامي، هو مُرْتَكَزٌ هَيّن لا تستقيم به الحُجّة ولا تَستبين به المحجّة، في رأي ثلة من المفكرين ومنهم مالك بن نبي رحمه الله، إذ أن كثيرا من مظاهر التبعيّة والهزيمة الفكرية وأصول التخلف الحضاري ترجع أساسا إلى الذوات والإرادات وعقم الأفكار وما تشبعت به النفوس عبر مسارات تاريخية طويلة، وإبان عهود ومحطات عديدة سبقت أحقاب الاحتلال من معتقدات ومفاهيم مغلوطة، وتصورات وخرافات معطوبة، وتفسيرات مجافية لسنن

الحياة والتفكير العقلاني والإبداع والعلوم والحضارة، جعلتنا في خصومة مقيتة مع العلم والفلسفة والفكر والفطرة والمنطق السليم والطرح المنهجي المؤسس على الوعي المستنير.

مراجع الدراسة:

1- عمر كامل مسقاوي، **في صحبة مالك بن نبي مسار نحو البناء الجديد.** ط1، دمشق: دار الفكر، 2013.

2- مالك بن نبي، **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة.** دمشق: دار الفكر، ط9، 2009.

3- مالك بن نبي، **القضايا الكبرى.** دمشق: دار الفكر، 2000.

4- مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، ط9، دمشق: دار الفكر، 2009.

5- مالك بن نبي، **بين الرشاد و التيه**. دار الفكر ، دمشق، 2002.

6- مالك بن نبي، **شروط النهضة.** دمشق: دار الفكر، 1986.

7- مالك بن نبي، **فكرة كمنويلث إسلامي**. دمشق: دار الفكر، 2000.

8- مالك بن نبي، **في مهب المعركة إرهاصات ثورة.** دمشق: دار الفكر، 2002.

9- مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع.** تر: عبد الصبور شاهين، الجزائر: دار الوعي، 2013.

10- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**. دمشق: دار الفكر،2002.

11- مالك بن نبي،**الصراع الفكري في البلاد المستعمرة.** دمشق: دار الفكر،2009،.

12- مالك بن نبي،**مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.** دمشق: دار الفكر،2002.

13- محمد العبدة، **مالك بن نبي مفكر اجتماعي و رائد إصلاحي.** ط1، دمشق: دار القلم، 2006.

14- محمد شاويش،**مالك بن نبي والوضع الراهن.** دمشق: دار الفكر، 2007.

15- مولاي الخليفة لمشيشي، **مالك بن نبي دراسة استقرائية مقارنة**. دمشق:دار محاكاة للنشر والتوزيع، 2012.

16- جلالي بوبكر، **البناء الحضاري عند مالك بن نبي**. الجزائر: دار المعرفة، د ت ن.

17- محمد لعاطف، **معوقات النهضة وطرق علاجها في فكر مالك بن نبي.** رسالة ماجستير، قسم الفلسفة، كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر، 2008/2007.

18- دهيمي زينب و فريد بوبيش، الإستراتيجية التربوية للتغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي. مقال منشور **بمجلة دراسات نفسية و تربوية**، مخبر تطوير الممارسات النفسية و التربوية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة(الجزائر)، العدد 11ديسمبر2013.

19- عمار جيدل، **نقد مسالك المسلمين في التغيير الإجتماعي عند مالك بن نبي**. مجلة رؤى، مجلة فصلية نعنى بقضايا التجديد والمستقبل، العدد 20، سنة 2003.